The Symbolism of Pain in the Poetry of Ibn Al-Haddad Al-Andalusi (D. 480 AH /1087 AD): A Study on the Relationships Between Poetry and Existence

Saad Saber Namal
Department of Arabic language, College of Education for Human Sciences, Anbar University, Ramadi, Iraq
saad.saber@uoanbar.edu.iq

KEYWORDS: **Pain, Ibn Al-Haddad, Pain triggers, Revelations, Significations**

https://doi.org/10.51345/.v36i4.1197.g588

ABSTRACT:

Pain is the emotional feeling that moves the poet. It is like fuel for the poet's psyche. The more his pain increases, the thinner and thicker his poetry becomes. It is as if it is fuel that moves his poetic heart. The motive for pain in poetry is many things. There is no doubt that pain in some philosophical schools of thought has a great benefit. It is What happened to our poet, from the womb of pain and suffering his poetry was born. He was in love with a Christian woman and she abstained from him because of her love for her religion, so he continued to wander in her and flirt with her, and he showed that state of pain, and although poets show pain at death, our poet was not one of them. Poets of lamentation. I only came across one poem in lamentation for Al-Mu'tasim's mother only. Nothing hurt him as much as that woman's refusal from him. He even called her Nuwara from the Fire, as if a fire had ignited in his heart with her love.

رمزية الألم في شعر ابن الحداد الأندلسي (ت:480هـ -1087م) دراسة في العلاقات بين الشعر والوجود

أ.م.د. سعد صابر نمال
قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة الانبار، الرمادي، العراق
saad.saber@uoanbar.edu.iq

الكلمات المفتاحية | **الالم ، ابن الحداد ، بواعث الالم ، تجليات ، دلالات**

https://doi.org/10.51345/.v36i4.1197.g588

الملخص:

يعدّ الألم هو الشعور الوجداني الذي يحرك الشاعر، فهوة بمثابة الوقود لنفسية الشاعر، فكلما زاد ألمه رق شعره وكثر، فكأنه وقود يحرك قريحته الشعرية.، فالباعث على الألم في الشعر أمور كثيرة جدا، ولا شك أن الألم في بعض المذاهب الفلسفية له منفعة كبيرة، وهو ما حصل لشاعرنا، فمن رحم الألم والمعاناة ولدت شاعريته، فكان يحب امرأة مسيحية وامتنعت منه لحبها لدينها، فظل يهيم فيها وأكثر من الغزل فيها، وكان يظهر تلك الحال من الألم، وعلى الرغم من أن الشعراء يظهرون الألم عند الموت إلا ان شاعرنا لم يكن من شعراء الرثاء فلم أقف إلّا على قصيدة واحدة في رثاء أم المعتصم فقط، فلم يكن يؤلمه شيء كتمنع تلك المرأة عنه حتى إنه سماها نويرة من النار وكأنها قد شبت نارا في قلبه بحبها.

المقدمة:

يعدُّ الشعر العربي أحد أهم الفنون الأدبية العربية إن لم يكن هو أهمها على الإطلاق، فهو أقدم ابداع عربي عرفته لغتنا العربية، وقد برز على ساحة الشعر واحدا من أهم شعراء الأندلس وهو ابن الحداد تلك البلاد التي ذخرت بالشعراء والأدباء، وقد رأيت أن شاعرنا ابن الحداد من أكثر الشعراء في هذا العصر إجادة للشعر والعربية، والتزاما بقواعدها وقواعد النظم عامة كما كلّل جهوده من خلال العمل الشعري لإبراز الحالة الشعورية، وإبراز جمالية الموسيقى واللغة في تصوير أحوال النفسية التي عبر عنها في شعره.

والتجربة الشعرية التي خاضها شاعرنا في أساسها تجربة لغة خالدة، فالشعر هو الاستخدام الفني للطاقات الحسية والعقلية والنفسية والصوتية للغة، يجسد فيه الشاعر تجاربه ومشاعره وآلامه وانفعالاته في قالب لغوي منمق، والشعر كذلك بناء لغوي مميز ينبني على تفجير طاقة اللغة، ويجعلها تضيف إلى نفسها ومن داخلها عنصراً آخر هو الإيقاع، الذي يسهم، بدوره في شحن الدفقة الشعرية، تبعاً لحالة الشاعر الشعورية التي تظهر آلامه في صورة انفعالية، ولعل موضوع الألم من الموضوعات المهمة في تكوين البنية النفسية والوجدانية لقريحة

الشاعر، فالكثير من الشعراء انطلقت قريحتهم الشعرية لسبب نفسي أو لمعاناة عاشها، لذلك اخترت موضوع رمزية الألم في شعر ابن الحداد الأندلسي (ت:480هـ -1087م) دراسة في العلاقات بين الشعر والوجود. يسعى هذا البحث لتطبيق منهج موضوعي في دراسة النصوص الشعرية، بالاعتماد على الأسلوبية ومعطياتها، ومناهجها ومدارسها، فيقوم على الجمع بين المنهجين الأول: الاستقرائي لتتبع ما ورد على لسان الشاعر من القصائد التي عبر فيها عن الألم، الثاني: المنهج التحليلي، للوقوف على تحليل معاني الألم ودلالاته عند الشاعر.

التمهيد:

أولا: مفهوم الألم لغة واصطلاحا:

1- الألم لغة: الوجع، يقال: أَلِمَه ألِما أي: أوجعه، والمؤلم الموجع، آلَمَ يُؤلِمُ إيلاماً، فهو مؤلِمٌ [1]. ويقال: آلِمٌ وتَأَلَّمَ وَآلَمْتُهُ والأَلِيْمُ المؤْلِمُ والعَذَابُ الأَلِيمُ الَّذِي يَبْلُغُ إِيْجَاعُهُ غَايَةَ البُلُوغِ [2]. فجريان مادة الألم في اللغة على الوجع وليس غيرها.

2-الألم اصطلاحا:

ومن العسير جدا الوقوف على تعريف دقيق للألم وذلك لكونه من المشاعر، والأشياء التي يشعر بها الإنسان من الصعب إيجاد تعريف دقيق لها، ولكن كما اطلق الفلاسفة أن الألم يعرف خواصه ولا يُعرَّف لأنه من الأمور النفسية وقد وردت محاولة للفلاسفة بتعريفه بأن قالوا: هو إدراك المنافر ونيل لما هو عند المدرِك آفة وشر[3].

ومعنى ذلك أن الألم يعرف عندهم بانه آفة وشر يدركها الإنسان بالإحساس والمشاعر، ولا يمكن ان يتساوى فيه الناس لكونه أمرا وجدانيا، وهو نوعان [4]:

الاول: نفساني: وينشأ عن تأثير الميول والأفكار والمعتقدات كمن يحزن لموت قريب وغيره.

الثاني: جسماني: وهو الذي ينشأ عن إحساس جسدي كوجع البطن والرأس أو الضرب وغيره.

ثانيا: الألم في الفكر الإسلامي والفلسفي:

ينقسم الفلاسفة تجاه الألم إلى فريقين:

الفريق الأول: وهم المدرسة المتشائمة، وهؤلاء يرون أن للألم فائدة، وأنه لابد منه وأن الألم ذو طبيعة إيجابية؛ لأن الحياة عندهم نضال مستمر، فلا تحصل عندهم اللذة إلا عند نسيان الألم وتجاوزه، فلا معنى حقيقي للذة إلا عند مفارقة الألم[5].

الفريق الثاني: وهم مدرسة اللذة، وهؤلاء يقولون أن الإنسان لا يعرف إلا خير واحد وهو اللذة، ولا يعرف إلا شر واحد وهو الألم، ويرون أن الغريزة هي المعيار الواحد لمقياس الألم واللذة ووحدها ويصدر الحكم على الأفعال بالخير والشر من خلال الغريزة(6).

وقد صنفت الفلسفة البوذية الهندية المنشأ على سعة انتشارها في قارة آسيا، فقد ارتكزت على الحقائق الأربع الفلسفية النبيلة وهي:

1- هناك معاناة وألم.

2- للمعاناة أسبابها.

3- المعاناة والألم يمكن القضاء عليهما.

4- اتباع الطريق الوسط هو سبيل القضاء على المعاناة والألم(7).

وتركز فلسفتهم في مبدأها العام على حال من اللذة النفسية في حب الإنسان لأخيه الإنسان، وصدقه له وإخلاصه، ووجود لاحترام الكامل لإيمان بوذا بأن هذا الإنسان نظيره في الإنسانية، وبروز الإنسان في صدقه وإخلاصه للإنسان فإن حياة الإنسان معرضة للعديد من المواقف المؤلمة ومنها ما يتعلق خاصة بالحب والكره فقد يجد الإنسان نفسه مرتبطا بما يكرهه ولديه امكانية تخليص نفسه منه، وأحيانا يكون ذلك خارج عن إمكانياته مثل مرض غير قابل للعلاج يلازمه، أو ضعف شخصي ملازم له غير قابل لإزالته، وقد ينفصل الإنسان عن الأشخاص الذين يحبهم، بسبب الكذب، أو يحال بينه وبين الأشياء التي يحبها لتركه الصدق معها، وكل ذلك من مسببات الألم، فترتكز الفلسفة البوذية على الطريق إلى السعادة للخلاص من الألم والمعاناة، من خلال فهم سلوك النفس بشكل موضوعي، مع بيان حال اللذة، واستبصار الدوافع قبل محاولة إصلاح النفس، فكم من الأعمال يتسم بالكرم والإيثار، وكم منها يتسم بالأنانية والاهتمام بالذات للتخلص من أسباب الألم والوصول إلى اللذة والسعادة(8).

وسبب نشوء المعاناة عند الفلاسفة هي بين ما يكونه المرء وما يملكه، أو بين ما يريد ان يكونه وما يملكه، فالفقير يرغب في الغنى، والضرير يرغب بالبصر، وكل فاقد للشيء يرغب فيه، وذلك سبب المعاناة عند الفلاسفة، فالرغبة هو المكون الأول للألم(9).

وقد ظهر الألم في الفلسفة الصينية القديمة علي أساس روحي وديني تشكله في المقام الأول مبادئ الفلسفة الكونفوشية التاوية فقد ارتبطت هذه المبادئ أوثق ارتباط بالألم والمعاناة كجزء من علم الأخلاق إذ لم يكن هدفها الأول فهم العالم وإنما كان هدفها جعل الناس عظماء بالوصول إلى اللذة المطلقة والتغلب على الألم، وهذه اللذة ذات شقين: لذة داخلية ومصدرها سلام الفرد مع نفسه ورضائه بالتغلب على آلامه النفسية ولذة

خارجية تتمثل في سلوك جيد، وهذين الشقين هما الممثل الأول لقيام حال اللذة والسعادة والتغلب على الألم عندهم(10).

ولما كانت لذة الأشخاص هي مناط الاهتمام الرئيسي في الفلسفة الصينية فإن الاهتمام بالناس يأتي في المقدمة وتتجلي هذه السمة في الكونفوشية ذات النزعة الإنسانية الاجتماعية وتبدو واضحة في التاوية ذات الوحدة الأنطولوجية بين النفس والكون وقد أدي ذلك إلي صعود الأخلاق والحياة الروحية إلي مكان القلب والتخلص من الألم بالوصول إلى اللذة المطلقة و كان الطريق الكونفوشي في جوهره طريق (جين) أو طيبة القلب وتعاطفه مع الآخرين (11).

فإنّ حيل البشر وأفاعيلهم تفضي إلي الشر والتعاسة وهم من أسباب الألم ويتعين عليهم العثور علي السلام والرضا والتخلص من هذا الألم بأن يتبعوا طريق الكون ويحققوا التوحد معه كما يري أن الحياة المثالية هي الحياة بترك الأشياء تعمل علي نحو طبيعي دون التدخل ودون الحاجة إلي فعل معين بما يمكن أن نصفه بأخلاف اللافعل، لما كان طريق الحكمة التاوية: لدي لاوتسو (لاوتزو)، لا ينال إلا بالهدوء والسكينة اللافعل فإنه اعتبر أن هذه الأمور الضعيفة هي أقل الأشياء التي تحصل اللذة وتقضي على الألم(12).

ثالثا: الواقع السياسي والاجتماعي:

لقد مرّ الواقع الأندلسي بأحداث وكوارث كثيرة حتى سقطت الدولة الأندلسية، وعلى الرغم من أنّ الأندلس قد بلغت أعلى الأماكن عند العرب، كما كانت محط الأنظار لما لها من رقي في جميع النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية، وشعب الأندلس عرف بالطيبة والعراقة والفصاحة، كما عرفت الآداب الأندلسية أعلى المنازل في المضامين الاجتماعية والسياسية، فمنذ أن كان للمسلمين الفاتحين الدور الأمثل في ذلك، لم يكن الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا مرحلة جديدة في التاريخ الإسباني وحده ولا مرحلة جديدة في التاريخ العربي الإسلامي فحسب بل في التاريخ الإنساني بوجه عام، فيعدّ الإيبيريون السكان الأوائل للأندلس من أقدم من عُرف من سكان إسبانيا، ثم اختلط بهم السلتيون، فنشأ من اختلاطهم الشعب السلتي إيبيري، وهو أصل الشعب الإسباني وعلى مرّ التاريخ أسهمت عناصر أخرى في تكوين الشعب الأندلسي الأول مثل: الفينيقيين والإغريق والقرطاجيين، ثم بسط الرومان نفوذهم علي شبه الجزيرة بعد تغلبهم علي دولة قرطاجنة في القرن الثاني قبل الميلاد(13).

وكل الذي فعله المسلمون من تغيير في اسم وندلس هو همزة الصوت الأول كما ذكر المقري في تسمية الأندلس نقلا عن ابن سعيد أن الأندلس سميت بأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح لأنه نزلها(14).

وقد مرت دولة الاندلس بالعديد من الأحداث التاريخية السياسية والاجتماعية لأمد طويل امتد لما يقرب من ثمانية قرون منذ الفتح 92هـ وحتى سقوط غرناطة عام: 898هـ. مرّ على الأندلس عدة عهود تقلبت فيها بين القوة والضعف والنصر والهزيمة والتوحد والتفرق وحسبنا أن نشير إلي عصوره إشارة سريعة إذ تقسم تاريخيا إلى:

عهد الفتح (95-92هـ)، عهد الولاة(138-95هـ)، عهد الإمارة (316-138هـ)، عهد الخلافة(316-400هـ)، عهد الطوائف(484-400هـ). عهد الموحدين والمرابطين(620-484هـ)، مملكة غرناطة (620-897هـ)، وهناك تقسيم آخر للعصر الأندلسي يقسمه إلي عصور هي: (عصر الولاة- العصر الأموي- عصر ملوك الطوائف- عصر المرابطين- عصر الموحدين- العصر الغرناطي)، غير أن ابن الحداد لم يدرك العصر الغرناطي، ومهما يكن من أمر فما يعنينا هو تلك المؤثرات السياسة والاجتماعية والثقافية في نفس شاعرنا التي تتصل بالأدب[15].

وقد عاش شاعرنا ابن الحداد بين عهد الخلافة وعهد الطوائف فقد شهد العصرين للدولة الأندلسية، وكلاهما اتسم بالكثير من السمات الرائعة، من حيث الملامح السياسية والدينية والاجتماعية، أما أم الملامح الاجتماعية، فقد تكون المجتمع الأندلسي من عناصر شتى ففيه الإسبان أهل البلاد الأصليون والوافدون من عرب أتوا من الشرق وبربر أتوا من شمال إفريقيا والموالي المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة والمماليك المجلوبون من بلاد غربية أوروبية الموسومون بالصقالبة، وعلى الرغم من تعدد العناصر البشرية في المجتمع الأندلسي فإنه لم يكن مجتمعا مهلهلا فهناك روابط قوية تشد بعضها بعضا في أغلب الأحيان وتطبعهم بالطابع الأندلسي القريب من الطابع العربي، وقد عاشوا حياة اجتماعية هادئة إلى حد كبير في مرحلة عهد الخلافة وعهد الطوائف[16].

ولقد انتشر في الأندلس عدة لغات، كانت العربية الفصحي لغة العلم والأدب العالي للأندلس، أما العامية العربية فكانت تلي الفصحى في المنزلة، أما العامية اللاتينية فكانت في المحل الأخير وكانت تحيا أساس مع المستعربين [17].

وقد انعكست هذه الصورة الأدبية اللغوية على الأدب العربي الأندلسي وخاصة على الشعر، فرأينا شعرا فصيحا وآخر شعبيا في تراث الأندلسيين، واستخدمت في الأول اللغة العربية الفصحى، واستخدمت في آخر ألفاظ عامية أخرى، وقد تفرع هذا الشعر الشعبي في التراث الأندلسي إلى فرعين هما الموشحات الذي ظهر في القرن الثالث والرابع الهجري في الأندلس وكذلك الأزجال[18].

ومن هنا بدأت الحياة الأدبية في الأندلس تزدهر ويعلو شأنها، ففتح الأندلسيون أعينهم على الشعر العربي وأخذوا في التطور والتجديد إلى أن أصبح الشعر الاندلسي من أرقى الأشعار العربية[19].

رابعا: ابن الحداد حياته، وسيرته، ووفاته:

اسمه:

هو محمد بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عثمان الشهير بن الحداد القيسي نسبة إلى قيس غيلان، النميري نسبة إلى نمير بن صعصعة ويكنى بأبي عبد الله [20].

حياته ونشأته:

لم تذكر كتب التراجم ميلاده غير انه ولد في آش، وقد قضى معظم حياته في بلاط المرية [21].

وقد مدح بأنه: كان شمس ظهيرة، وبحر خبر وسيرة، وديوان تعاليم مشهورة، وضح في طريق المعارف وضوح الصبح المتهلّل [22].

وكان قوي القريحة في الشعر، أديبا أريبا كثير الشعر.

مؤلفاته [23]:

أولا: ديوانه: وهو الكتاب المعني بالدراسة.

ثانيا: له مصنف في العروض مزج فيه بين بحور الشعر التي جمعها الخليل وبين الألحان والأهازيج.

ثالثا: قيد الأوابد وصيد الشوارد، في إيراد الشواذ والرد على الشذاذ.

تلاميذه:

لم يذكر المترجمون إلا اثنين فقط هما : عبد الله بن عوف، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان المعروف بابن الصفار [24].

أخلاقه:

اشتهر ابن الحداد بالأخلاق العالية كما اشتهر بالظرف وحس الدعابة والنبل والجود والعطاء، واشتهر بالتنجيم أي: علم الفلك، واشتهر بالغناء والمعازف فقد ذكرت الروايات التاريخية أنه كان يضرب العود وكان يغني بعض الأشعار [25].

وعرف عنه الوقار والحلم والأناة، كما عرف بالسمت وشرف النفس والعزوف والترفع عن القبائح، وقد نزع إلى جلالة مقطع، وأصالة منزع، ترى العلم ينم على أشعاره، ويبين في منازعه وآثاره [26].

وفاته:

اتفقت كتب التراجم على أن وفاته كانت في ألمرية في سنة أربعمائة وثمانين [27].

المبحث الأول: بواعث الألم

أولا: الباعث الوجداني:

الوجدان في الدلالة اللغوية يستعمل كاسم مصدر للفعل وجد، ودلالته الأصلية ما يجده الإنسان، يقال: "وَوجدت الشَّيْء أَجِدهُ وجدانا، وَمثل من أمثالهم: فَأَيْنَ حلاوة الوجدان"[28]، "وَقد يُسْتَعْملُ الوجدانُ فِي الوُجد؛ وَمِنْه قَول الْعَرَب: وِجدانُ الرَّقِين يُغَطِّي أَفَنَ الأفِين"[29]. فكانت الدلالة الأصلية لها وجود الشيء، ثم تطور ليدلّ على العاطفة أو ما يجده الإنسان بداخله من مشاعر فالوجدان على ذلك: "إحساس الباطن بما هو فيه"[30]. فتطور لفظ الوجدان من دلالته على وجود الضالة إلى الشعور العاطفي الداخلي.

أما الوجدان في عرف الأدب هو ما تعلق بالعاطفة والإحساس، وكل ما ذهب فيه الشاعر للتعبير عما يعتلج في نفسه، ولعلّ أول ظهور عند الراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ)، إذ قال: "انعطافا إلى مراتع الوجدان في دائرة الغزل والهوى والعشق"[31].

فيحصر الأصفهاني الشعر الوجداني فيما تمثَّل فيه الشاعر من شعر العاطفة من الغزل والعشق والهوى، فيظهر من كلامه أنّه يجعل الوجدان جزءًا من الشعر، ومن الأدباء والنقاد من يجعل الوجدان الجزء الأصيل من الشعر وبدونه لا يكون شعرا: "فلفظ الشعر على كل كلام تضمن خيالاً ولو لم يكن موزوناً مقفى، ولجريه وفق النظام الممثل في صورة الوزن والتقفية كان تأثيره في النفس من قبيل إثارة الوجدان والشعور"[32].

وهذا الأمر قد أثار جدلا واسعا في العصر الحديث، إذ لم يظهر الاتجاه الوجداني في الشعر إلا متأخرا في المذاهب والتيارات الشعرية الحديثة، كجماعة الديوان وشعراء المهجر وادعى البعض أن تلك القضية لم تظهر جليا إلا على أيدي النقاد المعاصرين أمثال العقاد وشكري والمازني وغيرهم [33].

والذي أراه أن الشعر منذ أن وجد يُعبر عن الوجدان، ولا يمكن أن ينفصل عنه، فلا يمكن أن يتكلم الشاعر بالشعر إلا إن كان نابعا من وجدانه، ويكون مُثيرا لوجدان من يقرأه.

ومن أمثلة الآفاق الوجدانية في شعر ابن الحداد:

قوله [34]:

أَرَبْرَبٌ بالكثيبِ الفَرْدِ أم نَشَأُ ... ومُعْصِرٌ في اللِّثام الوَرْدِ أم رَشَأُ
وباعثُ الوَجْدِ سِحْرٌ منكِ أم حَوَرٌ ... وقاتِلُ الصّبِّ عَمْدٌ منكِ أَم خَطَأُ

فالشاعر هنا ينطلق بوجدانه وعاطفته في المقدمة الغزلية، ثم يظهر تلك الحالة من الألم على تعمد حبيبته لقتل الصب وهو العاشق، فهي تتعمد أن تجانبه وتتعمد أن تبتعد عنه، وهو يسمي هذا نوعا من القتل، فهو يتألم

لبعدها ويتألم لامتناع الوصل منها، فهو يعشقها ويحبها ولكنها تصد عنه، وهذا باعث ظاهر للألم الوجداني عند الشاعر.

قوله [35]:

ذَهَبَ الناسُ فانفرادِي أَنِيْسِي ... وكِتَابِي مُحَدِّثِي وَجَلِيْسِي
صاحِبٌ قد أَمِنْتُ مِنْهُ مَلاَلاً ... واختلالاً وَكلَّ خُلْقٍ بَئِيْسِ

يظهر الشاعر هنا نوعا من الألم الوجداني، وذلك لاعتزاله الناس ولبعده عنهم، فهو متألم من أفعالهم، مما دفعه للعزلة والخلوة بكتابه، فهو يصرح بسبب الألم الذي يشعر به وهو الخلق السيء البئيس الذي يقابله بعه بعض أصحابه مما دفعه إلى تلك العزلة، فهو يظهر تلك الحال من الألم الوجداني لما رآه من بعض أصحابه.

وله في البين والهجر حال من اللوعة والألم حتى قال[36]:

نَوَى أَجْرَتِ الأفلاكَ وَهْيَ النَّوَاعِجُ ... وأَطْلَعْتِ الأبراجَ وَهْيَ الهَوَادِجُ
طَوَاوِيْسُ حُسْنٍ رَوَّعَتْنِي بِبَيْنِها ... غَرَابِيْبُ حُزْنٍ بالفِرَاقِ شَوَاحِجُ
وما حَزَنِي ألاَّ تَعُوْجَ حُدُوْجُهُمْ ... لَوِ الهَوْدَجُ المَزْرُوْرُ منهنَّ عائِجُ

يصدر الشاعر قصيدته بالرحلة على طريقة الشاعر الجاهلي، فهو يصف الرحلة إلى محبوبته، ولكن تلك الرحلة كانت مؤلمة جدا، ثم يظهر عليه حال التشاؤم بشدة لبعد حبيبته، فيبدي الألم والحزن الشديد لهذا البعد والنوى، ويتمنى الشاعر أن تعود مركبتها بحبيبته سالمة، وألا يصيبها أي أذى، ومبعث الألم والحزن الوجداني هو ذلك البيت والفراق.

ومن ذلك قوله[37]:

أيام روعني الزمان بريبه ... وأجد بي خطب الفرار الأفدح
ولئن أتاني صرفه من مأمني ... فالدهر يحمل تارة ويجلح

تظهر صورة الألم الوجداني السابق في حالة الشكوى من تقلب الزمان، فالشاعر يذكر حالة ترويعه من الزمان، حتى لاذ بالفرار، ومن ثم يبين تلك أن تلك الحالة هي عادة الدهر وأنه تارة يُجمل وتارة يحمل عليه كالأعداء، فكان مبعث الألم وجدانيا هنا بسبب تقلب الزمان.

ثانيا: الباعث النفسي:

تعد الحالة النفسية هي المؤثر الأول في قريحة الشاعر، وتلك الحالة النفسية هي التي تحرك الشاعر بين الإقلال من الشعر أو الإكثار، حتى يمكن أن نطلّ منها على الباعث النفسي المتواري خلف ألفاظ القصيدة ومكوناتها الفنية وأسسها البنائية ومهيمناتها الأسلوبية، وما تركته التجارب والمشاهد التي رافقت حياة الشاعر من آثار

عميقة الغور في وجدانه، فتتدفق احساساته بصياغات جمالية محسوسة ومشحونة بعاطفة تستجيب لها نفس المتلقي على نحو تلقائي لتلمس انفعالات الشاعر وخلجات نفسه المعبرة عن نبوغه الفني وعبقريته الشعرية الفذّة عن طريق ربط الخيال بالصورة(38).

وأصل الإبداع عند النقاد الأساس النفسي الذي يبني عليه الشاعر العاطفة والخيال، فالخيال ينبني على الحالة النفسية للشاعر: "إنما يرتبط الإبداع الأدبي بوظائفه النفسية من خلال استثارة عاطفتي الخوف والشفقة"(39).

أمثلة الباعث النفسي على الألم عند ابن الحداد:

ومن الباعث النفسي في الحنين للوطن والهجر قوله (40):

أَسْتَوْدِعُ الرحمنَ مُسْتَوْدَعِي ... شَوْقاً كَمِثْلِ النَّارِ في أَضْلُعِي
أَتْرُكُ مَنْ أَهْوَى وأَمْضِي كَذَا ... واللهِ ما أَمْضِي وقَلْبِي مَعِي
ولا نَأَى شَخْصُكَ عن ناظِرِي ... حِيْناً ولا نُطْقُكَ عن مَسْمَعِي

لا شك أن البعد عن الأوطان والأحبة مما يُؤثر في نفسية الشاعر، فهو يحترق ويتألم على بعده عن وطنه وأحبته، فهو يرتحل بجسده تاركا قلبه مع من يحب، فهو يتألم لبعده عن وطنه وعن حبيبته، فيُؤثر هذا البعد في نفسيته ويبعث فيها الألم.

وقوله (41):

مَنْ لِي بأنْ أَشْكُو إليكَ مَدَامعاً ... تَهْمِي عليكَ وأَضْلُعاً بكَ تَحْتَرِقْ
فترَقَّ لِي يا مَنْ غَدَا قَلْبُ اسمِهِ .... مُتَصَحِّفاً ما ضِدُّهُ ماضِي يَرِقْ

يُظهر الشاعر هنا حالة الألم بشدة في أبياته على فراق أحبته وبعد حبيبته عنه، ويبدي تلك الدموع التي تنزل بحسرة وألم على فراقها وبعدها عنه.

قوله(42):

وبين المَسِيْحِيَّاتِ لِي سَامِرِيَّةٌ ... بَعِيْدٌ على الصَّبِّ الحَنِيْفِيِّ أن تَدْنُو
مُثَلِّثَةٌ قد وحَّدَ اللهُ حُسْنَها ... فَثُنِّيَ في قَلْبِي بها الوَجْدُ والحُزْنُ

يظهر الشاعر هنا حالة نفسية قد أثرت عليه مدة طويلة، وهو قد عشق امرأة رومية، ولما استحال أن يتجمع الشاعر بحبيبته وكانت رومية على غير دين الإسلام فامتنعت منه، فعاش الشاعر في حالة ضيق مما جعل الألم يتشبث به ويُؤثر في حالته النفسية التي مر بها.

ثالثا: الباعث السياسي:

يعدّ الشعر السياسي صورة من صور الشعر العربي منذ القدم، وهو ذلك الشعر الذي كان غرضه الانتصار لأحد المذاهب أو الأحزاب السياسية، وتعد نشأته منذ بروز الأحزاب السياسية على الساحة الأدبية كالحزب الأموي الحاكم، أو حزب الزبيرين أو حزب الخوارج أو الشيعة، أما في الجاهلية فإنَّ الشعر السياسي يرد ويأتي على معانٍ أخرى، وهي تأييد القبيلة والسير على خاطاها أو شعر يقال ثورة على القبيلة وهجاء لها، وقد يرد الشعر السياسي في الجاهلية على شكل فخر بالقبيلة على أعدائها، وهجاء لهم، وقد يرد الشعر السياسي في شكل ثورة على الأنظمة القبلية كلها، أو المجتمع ككل مثل شعر الصعاليك [43].

"فظهر الشعر السياسي الذي يصور نظريات فرقهم في الخلافة، وهي فرق الخوارج والشيعة والزبيريين والأمويين، وظهرت النقائض تحت تأثير الحياة العقلية الجديدة وحاجة الجماعة العربية في البصرة والكوفة إلى فن شعري تقطع به فراغها في المدينتين، ويحقق لها ما تريد من اللهو والتسلية. وهذان النوعان اللذان يعدان تطورًا واضحًا لفني المديح والهجاء رافقهما تأثر عميق بمثالية الإسلام الخلقية والروحية؛ فكان الشعراء يمدحون الخلفاء" [44].

ولكن الشعر السياسي بمعناه المعروف حديثا لم ينتشر إلا في عهد بني أمية، وذلك لنشأة الأحزاب السياسية الأربعة التي تتنافس على الزعامة، فنشأة الحزب الأموي الحاكم في هذا الوقت المناصر لخلافة بني أمية، أعقبه نشأة الحزب الشيعي فكان آل البيت يتنازعون بني أمية تلك السلطة[45] .

وقد ظهر الشعر السياسي في عصر ابن الحداد بشكل مغاير لما كان عليه الشعر السياسي في أول نشأته، فقد ظهر في عصره حال من المدائح السلطانية، والدعوة إلى قتال الأعداء وما إلى ذلك من مجالات الشعر السياسي في العصور الأندلسية، وكما أظهر الرافعي (1356هـ): " فالأول في ظاهر الأدب وتأثره بالتاريخ السياسي، والثاني في حقيقته وتأثر التاريخ السياسي به؛ وهذا مما انفرد به الأدب الأندلسي؛ لأنه بدأ عربيا وانتهى أعجميا" [46] .

ولكن التأثر السياسي في العصور الأندلسية ظهر من خلال المدائح السياسية وتحميس الجند على القتال.

أما عند ابن الحداد فلم يتطرق الشاعر إلى حالة من الألم في الباعث السياسي، فلم يتطرق في الشعر السياسي إلا للمدائح، كمداح المعتصم بن صمادح والمقتدر بن هود، وعلى الرغم انحسار الشعر السياسي في لون واحد للشاعر إلّا أنه قد ظهر عنده حالة من الألم في الشعر السياسي على قلته، ومن ذلك[47]:

هاجُوا ظُباكَ التي بالسِّلْمِ قد هَجِنَتْ ... فَسَوْفَ يَسْكُنُ منها الظِّمْءُ والهَجَأُ

راعَيْتَ تَقْواكَ حتى في جَزائِهِمُ ... وما رَعَوْا ما تُراعيه ولا كَلأُوا

يظهر الشاعر هنا حالة من الألم في الشعر السياسي، فالأعداء يثيرون غضب المعتصم حتى لجأ إلى القتال حتى في أيام السلم والهدنة، ومن ثم يبدي الألم لأن الأمير ابتعد عن المعاملة القاسية مع أعدائه على الرغم ما لاقاه منهم.

ومنه قوله [48]:

كأنَّ عُلاَهُ دولةٌ أُمَويَّةٌ ... وما نابَ من خَطْبٍ عُمَيْرٌ وضابِئُ

وإن يمسس العاصين قرحك آنفاً ... فأيدي الوغى عّما قليلٍ توالئُ

عسوا فعصوا مستنصرين بخاذل ... وأخذل أخذ الحين ما منه لاجئُ

يصور الشاعر ما لاقى الأمير بما لاقاه عثمان بن عفان من عمير بن ضابئ، والشاعر يبدي حالة من الحزن والألم على تلك الحال، على الرغم من أن الأمير لم يكن قاسيا مع أعداءه إلا أنهم مستمرين في عداوته، واستنصروا عليه بمن خذله، فالشاعر يبدي الألم على تلك الحالة من العداوة والخذلان التي أصابت الأمير من أعداءه.

ومن ذلك قوله في مدح المقتدر بن هود [49]:

وليس يَحِيْقُ المَكْرُ إلاَّ بِأَهْلِهِ ... وكم مُوْقِدٍ يَغْشاهُ مِنْ وَقْدِهِ لَفْحُ

ومَنْ تَكُنِ الأَقْدَارُ مُسْعِدَةً له ... يَعُدْ شَبِماً عَذْباً له الآجِنُ المِلْحُ

إذا خِيْفَ أنْ تَشْتَدَّ شَوْكَةُ مارِقٍ ... فلا رأْيَ إلاَّ ما رَأَى السَّيْفُ والرُّمْحُ

يبدي الشاعر حالة من الألم على أولئك الأعداء الذين يكيدون المكائد بالمقتدر بن هود، وعلى الرغم من أنه مسالم ولم يأخذهم بالعقوبات إلا أنهم يحيقون به المكائد ويضرمون نار الفتنة في البلاد.

رابعا: الباعث الاجتماعي:

يقصد بالباعث الاجتماعي علاقة الشاعر بمن حوله وبالعادات والتقاليد، والعادة هي كل ما ألفته جماعة من الناس فهم يسيرون عليه، فهي: "كلُّ ما أَلِفه الشَّخصُ حتَّى صار يفعله من غير تفكير، أو فعل يتكرَّر على وتيرة واحدة" [50].

وتعتد العادات والتقاليد من اهم الأمور الاجتماعية التي تربط الناس ببعضها، فكل شخص له ما يألف فعله وما يعتاده من لبسه وتعاطيه للبيع والشراء وحمل الأمتعة وغير ذلك فإذا فعل ما لا يليق به لغير ضرورة قدح وإلا فلا فهي أمر اجتماعي يسير عليه الناس في كل معاملاتهم" [51]. والعادات هي القانون المعتبر عند الفقهاء فيما لم يقع فيه تشريع، ما لم يقع فيه تصادم مع الشرع [52].

أما ما يعينا هنا من الامور الاجتماعية ذلك الباعث الاجتماعي على الألم عند ابن الحداد، فقد ظهرت حال الشكوى لدى الشاعر أحيانا من الوضع الاجتماعي له، فقد اعتزل الناس فترة طويلة، فلم يكتب فيها الشعر إلا القليل، وهو يذكر تلك الفترة فيقول من شعر الحكمة الذي يبعث الألم (53):

الناس مثل حباب ... والدهر لجة ماء

فعالم في طفو ... وعالم في انطفاء

يشبه الشاعر الناس بفقاعات الماء والدهر بالماء، فكأنهم لا يعنوه شيئا ولا يعنيه ما هم ذاهبون إليه، وهو نوع من التمرد على المجتمع الذي تسبب للشاعر بآلام كثيرة، فلا يمكن ان يبتعد الشاعر عن كل الناس إلى تلك الحالة إلا بعد إيذائهم له.

وقد مر الشاعر بتجربة العذل واللوم فكان بني قومه ودينه يبتعدون عنه لأنه يهيم برومية ويحاول وصالها، حتى قال (54):

فإنَّ بِي للرُّوْمِ رُوْمِيّةً ... تَكْنِسُ ما بين الكنيساتِ

أَهِيمُ فيها والهوى ضَلَّةٌ ... بَيْنَ صَوامِيْعَ وبِيْعاتِ

وفي ظِباء البَدْو مَنْ يَزْدرِي ... بالظَّبَيَاتِ الحَضَرِيَّاتِ

أُفْصِحُ وَحْدِي يومَ فِصْحٍ لَهُمْ ... بَين الأَرَيْطَى والدُّوَيْحاتِ

وقد أَتَوْا منه إلى مَوْعِدٍ ... واجتمعوا فيه لِمِيْقاتِ

يُظهر الشاعر الحب والولع بتلك المرأة الرومية وهي من غير المسلمين، ثم يظهر الشاعر أن حبه لها بعيد المنال، ويظهر حالة اللوم التي يعاني منها من أبناء قومه لكلفه بتلك المرأة الرومية، وقد تعلق الشاعر بها مدة طويلة حتى إن اكثر غزلياته فيها، وقد أحس الشاعر بحال المجتمع الذي يعيش فيه من لومه على عشقه لها، فبعث ذلك حال من الألم فيه، حتى قال (55):

سَيُصبحُ سِرّي كالصَّباحِ مُشَهَّراً ... ويُمْسِي حَدِيثِي عُرْضَةَ المُتَحَدِّثِ

وَيَغْرَى بذِكرِي بين كأسٍ وروضةٍ ... وَيُنْشِدُ شِعْرِي بين مَثْنىً ومِثْلَثِ

يظهر الألم هنا لانكشاف سره، فهو يحاول أن يكتمه ولكن هيهات أن ينكتم سر العاشق، وافتضاح أمره سبب له اللوم الشديد من أبناء قومه، مما سبب له الألم.

المبحث الثاني: تجليات الألم في شعر ابن الحداد

أولا: الألم وشعر الرثاء:

يعدّ الرثاء من أهم الموضوعات الشعرية التي تتميز بالصدق؛ لأنه يعبر عن الحزن واللوعة والتآسي والإحساس، وكان الرثاء في الجاهلية في فرسان القبيلة وأبطالها في القتال وساداتها والأقارب، والرثاء في الأصل هو ذكر خصال الميت الحسنة والتنديد عليه، ومدحه وذكر كل أفعاله الحسنة حال حياته، ويذكر بعض النقاد أن الرثاء أصدق فنون الشعر، وأقرب لملامسة القلب، وذلك لأن الشعراء قالوه وهم تحترق أكبادهم على الميت، فيخرج من صميم القلب فلا يتكلفه شاعر، ولا يتصنعه أحد، ولا يكون الرثاء رثاء إلا إذا كان لشخص ميت [56]. وقال ابن رشيق: "وليس بين الرثاء والمدح فرق؛ إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل "كان" أو "عدمنا به كيت وكيت" وما يشاكل هذا وليعلم أنه ميت، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً" [57].

وقد ظهر الرثاء بقلة في شعر ابن الحداد، ومن أمثلة ذلك قوله [58]:

شَقِيْقُكَ غُيّب في لَحْدِهِ ... وتُشْرِقُ يا بَدْرُ مِنْ بَعْدِهِ
فَهَلاَّ خَسَفْتَ وكان الخُسُوْفُ ... حِداداً لَبِسْتَ على فَقْدِهِ

ظاهر الأبيات انها للرثاء ولكن الشاعر قد قالها في تنزيل القمر منزلة الناس وقد كان ذا علم بالتنجيم والفلك، وكان ينتظر الخسوف فظل يردد تلك الأبيات كأنه يرثي البدر الذي سيخف.

ومنه قوله[59]:

لا بُدَّ أَنْ تَتْلُو الحياةَ مَنِيَّةٌ ... مَنْ شَكَّ أَنَّ اليومَ يُزْجِي المَوْهِنَا
لا تَرْجُ إبقاءَ البَقَاءِ على امرئٍ ... كُلُّ النُّفُوْسِ تَحِلُّ أَفْنِيةَ الفَنَا
تَجِدُ الحياةَ نفيسةً ونُفُوْسُنَا ... غُرَباءُ تَرْغَبُ عندها مُتَوَطَّنَا
لَوْ أَنَّهَا شَعَرَتْ لها وَسَقَتْ دَرَتْ ... أنَّ الوَفَاةَ هي الحَيَاةُ تَيَقُّنَا
لكنَّها عَمِيَتْ ولم تَرَ رُشْدَهَا ... ما كُلُّ مَنْ لَحَظَ الأمورَ تَبَيَّنَا

وقد قالها في رثاء والدة المعتصم بن صمادح، فأبدى حالة الألم على فقد المعتصم لأمه وقد ظهر منه حال الحزن الشديد على موتها فرثاها الشاعر، وأبدى عليها الجزع والحزن، ثم هو في معرض الألم يرسخ حقيقة الموت وحقيقة الدنيا وأنها دار فناء ولا تبقي على أحد، وتظهر حالة الألم في الرثاء هنا.

ثم يتابع قوله [60]:

وما جَفَّ مِنْ دَمْعٍ عليها مَدْمَعٌ ... الحُزْنُ ما وَالَى الدُّمُوْعَ الهُتَّنَا
أَعَقِيْلَةَ الأَمْلاَكِ والمَلْكِ الذي ... لَبِسَ السَّناءُ به جَلابِيْبَ السَّنَا

فَسَقَاكِ مِثْلَ نَدَاكِ أَوْ كَدُمُوْعِنَا ... مُزْنٌ يُعِيْدُ ثَرَاكِ رَوْضَاً مُخْزَنَا

يظهر الشاعر الدموع والبكاء وحالة المعتصم لفقد أمه، ثم يستأنف الحزن والبكاء والدموع بالدعاء لها، ويدعو أن يُسقى قبرها بسحائب الرحمة.

وعلى الرغم من ندرة الرثاء في شعر ابن الحداد حتى يكاد يخلو الديوان من شعر الرثاء إلا من هذه القصيدة، إلا انه أجاد في إبداء الألم على الميتة وتعديد محاسنها.

ثانيا: الألم وشعر الغزل:

والغزل هو التحبب والتشبب بالنساء، فكل من عرف الغزل ذكر أنه ذكر الرجل محاسن المرأة وذكر حبه لها، وذكر محاسنها وجمالها [61].

وقد علل ابن قتيبة كثرة شعر الغزل والتشبيب بالناء فقال: "لأنّ التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما (قد) جعل الله فى تركيب العباد من محبّة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلّقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم، حلال أو حرام. فإذا (علم أنّه قد) استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقّب بإيجاب الحقوق، فرحل فى شعره، وشكا النّصب والسّهر، وسرى الليل وحرّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير" [62].

وقد يظهر الألم في شعر الغزل من خلال تلك اللوعة للفقد والنوى، والحزن لانقطاع النوال وغيره، والبكاء على الفراق وغيرها من بواعث الألم في شعر الغزل.

ومن أمثلة الألم الذي يظهر في شعر الغزل عنده قوله [63]:

وقد هَوَتْ بهَوَى نَفْسِي مَهَا سَبَأٍ ... فهل دَرَتْ مُضَرٌ مَنْ تَيَّمَتْ سبَأُ

كأنَّ قلبِي سليمانُ وهُدْهُدُه ... لَحَظِي وبِلْقِيسُ لُبْنَى والهَوَى النَّبَأُ

يصور الشاعر نفسه بشيء مادي يهوي ويسقط ولكن ذلك السقوط هو في حبها، فهو متيم وهي لا تعلم بحاله او تتغاضي عنه فلا تجبه إلى وصال، مما يسبب للشاعر الألم الشديد.

ومن ذلك قوله [64]:

قَلْبِيَ في ذاتِ الأثيْلاَتِ ... رَهِيْنُ لَوْعَاتٍ وَرَوْعاتِ

فَوَجِّهَا نَحْوَهُمُ إنَّهُمْ ... وإنْ بَغَوْا قِبْلَةُ بُغْياتِي

يظل قلب الشاعر في حالة لوعة وألم شديد، فهو لا ينفك يتألم لحبه لتلك المرأة، فهو لا يمكن ان يبتعد عن حبها وستظل هي قبلته مدى حياته، مما يبعث الألم في نفسه.

ثم يتابع في إظهار حالة الألم في الكلف بتلك المرأة الجميلة بقوله [65]:

وأيُّ مَرْءٍ سالمٌ مِنْ هَوىً ... وقد رأى تلك الظُّبَيَّاتِ
فمن خُدُودٍ قَمَرِيّاتٍ ... على قُدُوْدٍ غُصُنِيَّاتِ

فلا سلامة عنده من الحب، وهذا مبعث الألم الداخلي له.

وقوله (66):

حَدِيثُكِ ما أَحْلَى فَزِيْدِي وَحَدِّثِي ... عَنِ الرَّشإِ الفَرْدِ الجَمَالِ المُثَلِّثِ
ولا تَسْأَمِي ذِكْرَاهُ فالذِكْرُ مُؤْنِسِي ... وإنْ بَعَثَ الأشواقَ مِن كلِّ مَبْعَثِ
وبالله فَارقِي خَبلَ نَفْسِي بقوله ... وفي عَقْدِ وَجْدِي بالإعادة فانفُثِي

ينتظر الشاعر أن تجود حبيبته عليه بحديثها، فلا شيء يصبره على تلك الآلام التي يعانيها لحبها إلا هذا الحديث الذي يشبهه بالسحر، فهو سيظل متيما بها وبحبها.

وقوله (67):

وَارَتْ جُفُونِي مِنْ نُوَيْرَةَ كاسِمِها ... ناراً تُضِلُّ وكلُّ نارٍ تُرْشِدُ
والماءُ أنتِ وما يَصِحُ لِقَابِضٍ ... والنار أَنتِ وفي الحَشَا تَتَوَقَّدُ

وحبيبته الرومية التي على غير دينه كان يكني عنها بنويرة، وأكثر أبيات الغزل في ديوانه لها، ويُظهر الشاعر هنا حالة الألم عبر تلك النيران التي تتوقد في حشاه وقلبه، فهو قد سماها نويرة لأنها أشعلت النار في قلبه بحبها فهو يتألم لبعدها وأنها تتمنع منه لدينها.

ثالثا: دلالات الألم في شعر ابن الحداد:

فمن التوجع الشكوى التي تبعث الألم قوله في أرمد(68):

يا شَاكِيَ الرَّمَدِ الذي بِشَكَاتِهِ ... قد صارَ دَهْرِيَ فيه ليلةَ أَرْمَدَا
والله والإشفاق يعلم أنني ... لو أستطيع فدى لكنت لك الفدا
كَمْ من دَمٍ سَفَكَتْ جُفُونُكَ لم تَزَلْ ... تُخْفي وَتَكْتُمُ سَفْكَهُ حتى بَدَا

يُظهر الشاعر حالة الوجع والألم لفقد أحبته ولبعدهم عنه، فهو يشكو بعده عن الرمد حتى أصابه الرمد في عينه، فهو يهيم بها حبا لوجود حبيبته نويرة فيها، فيتوجع لبعده عنها وعن حبيبته.

ومن القلق للكلف بامرأة لشدة جمالها قال (69):

إذا جاءني زائراً حُسْنُهُ ... أَقامَ عليه رَقِيْباً عَتِيْدَا
إذا ما بَدَا سَرْبَلَتْهُ العُيُوْنُ ... وَخَرَّتْ وُجُوْهٌ إليه سُجُوْدَا
هُوَ البَدْرُ والغُصْنُ خَدَّاً وقَدّاً ... كما أنَّه الظَّبْيُ لَحْظاً وَجِيداً

أتى زائراً وفؤادِي خَلِيٌّ ... فَمَرَّ به مُسْتَهَامَاً عَمِيدَا

يبدي الشاعر قلقه على حبيبته لشدة جمالها، حتى وصل به الأمر إلى ان يراقبها ليحرسها من أي شخص يحاول الاقتراب منها، ويبين الشاعر أنه لمجرد أن رآها ذات مرة كَلِف بها وعشها فهو يخشى أن يحبها أحد غيره فيظل عليها رقيبا.

ومن دلالة الحزن الذي يبعث الألم لسبب الفراق قوله [70]:

يا غائباً خَطَرَاتُ القَلْبِ مَحْضَرُهُ ... الصَّبْرُ بَعْدَكَ شيءٌ لَسْتُ أَقْدِرُهُ

تَرَكْتَ قلبِي وأشواقِي تُفَطِّرُهُ ... ودَمْعَ عَيْنِي وأحداقي تُحَدِّرُهُ

لو كُنْتَ تُبْصِرُ في تُدْمِيْرَ حالَتَنَا ... إذنْ لأَشْفَقْتَ ممّا كُنْتَ تُبْصِرُهُ

فالعَيْنُ دُوْنَكَ لا تَحْلَى بِلَذَّتِها ... والدَّهْرُ بَعْدَكَ لا يَصْفُو تَكَدُّرُهُ

أُخْفِي اشتياقي وما أَطْوِيهِ مِنْ أسفٍ ... على المريَّةِ والأنفاسُ تُظْهِرُهُ

فالألم الظاهر في الأبيات السابقة يدلّ على الحزن لفراق أحبته والبعد عن ألمرية فالدلالة الظاهرة الحزن الشديد على فراق الأحبية والحنين لموطنه ألمرية، فالشاعر يشعر بحالة من التدمير والحزن الشديد على بعده عن ألمرية.

ومن التحسر الذي يسبب الألم أيضا قوله [71]:

فَيَا عَجَباً أنْ ظَلَّ قَلْبِيَ مُؤمِنا ... بشرع غرام ظل بالوصل كافرا

أرجي لسلواني نشوراً وحسنها ... يَرَى رَأْيَ ذي الإلحادِ أَنْ لَيس ناشِرَا

فشريعة الغرام في عرف محبوبته لا تعرف الوصل، فهي كافرة بالوصل بكل أشكاله، فالشاعر يصور الوصل كأنه دين وهي كافرة به، وهو ما يسبب للشاعر تلك الحالة من الألم.

وقال في مبعث الإحباط والقلق [72]:

لَزِمْتُ قَنَاعتِي وَقعَدْتُ عَنْهُمْ ... فلستُ أَرَى الوزيرَ ولا الأميرَا

وكنتُ سميرَ أَشْعارِي سَفَاهاً ... فَعُدْتُ لِفَلْسَفِيَّاتِي سميرَا

وباعث الألم هنا حالة من الإحباط والقلق لما لقيه الشاعر في بلاط المعتصم، فاعتزل هذا البلاط ويبعث الإحباط حالة من الألم إذ الشاعر ينتابه شعور بأن كل مدائحه للمعتصم كانت سفاها، ولم يكن منها أي فائدة، فهو يعتزل مدح المعتصم لحالة من الإحباط أصابته فأصبح معتزلا لكل مدائحه للمعتصم، ومن ثم يصيبه القلق بحالة من الألم.

ومن حالة التسحر التي أصابته قوله [73]:

أيُّها الواصِلُ هَجْرِي ... أنا في هِجْرانِ صَبْرِي

لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ نَفْعٍ ... لَكَ في إِدْمانِ ضَرّي

يبدي الشاعر حالة من التسحر على أن حبيبه نويرة ترفض أن تصله بأي شكل، مما بعثه على التحسر والندم على ما هو فيه من حب لها، فهو يخاطبها بهذا لما تتمسك بمضرته على حبه الشديد لها.

ومن البكاء الذي يبعثه الألم قوله (74):

إنَّ المدامعَ والزَّفِيْر ... قد أَعْلَنَا ما في الضَّمِيْرْ

فَعَلامَ أُخْفِي ظَاهِراً ... سَقَمِي عليَّ به ظَهِيْرْ

هَبْ لِي الرِّضَى من سَاخِطٍ ... قَلْبِي بِساحَتِهِ الأسِيْرْ

يبدي الشاعر هنا البكاء والمدامع والألم الشديد ويوضح ان تلك الدموع أعلنت ما هو يخفيه في ضميره من حب لها، فهو مولع بها ولا يستطيع أن يخفي دموعه.

ومثله قوله (75):

رويدك أيها الدمع الهتونُ ... فدون عيان من أهوى عيونُ

يظن بظاهري حلم وفهمٌ ... ودخلة باطني فيه جنونُ

وهنا يخاطب الشاعر دموعه التي نزلت تهمي لشدة الحزن الذي هو فيه على هجران حبيبته له.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث أسأل الله عز وجل التوفيق والقبول وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، اذ يدور البحث في فلك موضوع مهم للشعر وهو الألم، فالألم هو أحد أهم البواعث التي أثرت في شعر الشعراء لا سيما شاعرنا "ابن الحداد" فقد تأثر شاعرنا كثيرا بالكثير من الأشياء التي سببت له الألم مما جعل قريحته الشعرية تنطلق. وقد توصلت إلى بعض النتائج وهي:

1- يعد ابن الحداد من كبار الشعراء الذين مروا على الأندلس، وكانت حياته في القرن الخامس الهجري، وهو القرن الذي شهد حالة استقرار سياسي كبير في الأندلس.

2- الألم شعور وجداني خالص قد يكون سببه نفسي أو لأمر آخر خارج فالباعث على الألم في الشعر أمر وجداني أو نفسي أو لرثاء ميت أو قد يكون لسبب اجتماعي أو سياسي.

3- ظهر الألم بكثرة لأسباب وجدانية ونفسية عند شاعرنا وكان أكثر تلك الأسباب هو حبه لنويرة وهي امرأة سماها الشاعر بهذا الاسم وهي امرأة رومية على غير دين الشاعر، حاول التقرب إليها ولكنها أبت فظل يعيش في ألم ولوعة لشدة حبه لها ولكنها تمنعت منه بكل حال لدينها.

4- لم يظهر الألم السياسي في شعر ابن الحداد إلا قليلا؛ نظرا لقلة شعره السياسي إلا من المدائح السياسية فحسب.

5- ندر شعر الرثاء في ديوان الشاعر فلم تظهر حالة الألم في الرثاء إلى في قصيدة واحدة في رثاء أم المعتصم.

المصادر والمراجع:

1. الأدب الأندلسي، د. أحمد هيكل، مكتبة الشباب، الطبعة الثانية 1942م.
2. أديان العالم، هيوستن سميث، ترجمة سعد رستم، د. ط.
3. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: 1356هـ)، دار الكتاب العربي، د. ط.
4. تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دكتور إحسان عباس (المتوفى: 1424هـ)، الناشر: دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة: 1978م.
5. تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دكتور إحسان عباس (المتوفى: 1424هـ): 252، ونشأة الموشحات، سليمان العطار، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد: مدن الأندلس " قرطبة "، المجلد التاسع والعشرون، مدريد 1997م.
6. تاريخ الأدب العربي، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف – مصر، الطبعة: الأولى، 1960 - 1995 م.
7. تاريخ التشريع الإسلامي، مناع بن خليل القطان (المتوفى: 1420هـ)، مكتبة وهبة الطبعة: الخامسة 1422هـ-2001م.
8. تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، تعريب: د. أحمد السعيد سلمان.
9. تاريخ الصين الحديث 1516- 1911، نوري عبد الحميد العاني، ط1، بغداد، 2003م.
10. تطور الأدب الحديث في مصر، أحمد عبد المقصود هيكل، الناشر: دار المعارف، الطبعة: السادسة 1994م.
11. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م.
12. التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: 1031هـ)، عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ-1990م.
13. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، 1987م.
14. جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: 1362هـ)، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت.
15. دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق 12هـ)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م.
16. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (المتوفى: 1406هـ) الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة، جـ 1، 2، 5/ الرابعة، 1417 هـ - 1997 م.
17. دين الانسان، فراس السواح بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، ط4، دار علاء الدين، 2002.
18. ديوان ابن الحداد، جمع وتحقيق: د. يوسف علي طويل.
19. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، الطبعة الثالثة 1992م.
20. الفكر الشرقي القديم جون كولر، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1995م.
21. -في الأدب الحديث، عمر الدسوقي، الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة: الجزء الأول 1420 هـ- 2000م.
22. قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار، محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية.
23. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

24. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ.
25. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: 458هـ] المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 م.
26. المشكلة الخلقية، سلسلة مشكلات فلسفية، زكريا إبراهيم، العدد: 6، مكتبة مصر، القاهرة، 1969.
27. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو 770هـ)، المكتبة العلمية – بيروت.
28. معجم الفلاسفة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط: 1، 1987م.
29. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.
30. المعجم الفلسفي، عبد المنعم الحنفي، الدار الشرقية، القاهرة، ط: 1، 1990م.
31. معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008م.
32. موسوعة الأديان القديمة: معتقدات آسيوية العراق، فارس، الهند، الصين، اليابان، كامل سعفان، ط1، دار الندى، القاهرة، 1999م.
33. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، لبنان ص. ب 10، الطبعة الأولى: 1997م.
34. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان ص. ب 10، الطبعة: الأولى، 1900م.
35. النقد الأدبي الحديث، قضاياه ومناهجه، صالح هويدي د. ن، 2007م.
36. نقد الشعر، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (المتوفى: 337هـ)، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، 1302م
37. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: 764هـ) المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر:1420هـ- 2000م.

الهوامش:

(1) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 170هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال: 347/8.
(2) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: 458هـ]، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 م: 416/10.
(3) المعجم الفلسفي، عبد المنعم الحنفي، الدار الشرقية، القاهرة، ط: 1، 1990م: 30.
(4) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م: 123/1-126.
(5) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا: 125/1-126.
(6) ينظر: المشكلة الخلقية، سلسلة مشكلات فلسفية، زكريا إبراهيم، العدد: 6، مكتبة مصر، القاهرة، 1969: 115.
(7) الفكر الشرقي القديم جون كولر، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1995م:183.
(8) ينظر: أديان العالم، هيوستن سميث، ترجمة سعد رستم، د. ط: 145.
(9) ينظر: معجم الفلاسفة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط: 1، 1987م: 176-177.
(10) تاريخ الصين الحديث 1516- 1911، نوري عبد الحميد العاني، ط1، بغداد، 2003م:39، وما بعدها. بتصرف.
(11) موسوعة الأديان القديمة: معتقدات آسيوية العراق، فارس، الهند، الصين، اليابان، كامل سعفان، ط1، دار الندى، القاهرة، 1999م:268.
(12) دين الانسان، فراس السواح بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، ط4، دار علاء الدين، 2002م:245.
(13) ينظر: الأدب الأندلسي، د. أحمد هيكل، مكتبة الشباب، الطبعة الثانية 1942م: 18.

(14) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر- بيروت - لبنان ص. ب 10، الطبعة الأولى: 1997م:125/1.

(15) ينظر: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، تعريب: د. أحمد السعيد سلمان، 19/1، وما بعدها.

(16) ينظر: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، تعريب: د. أحمد السعيد سلمان: 19/1، وما بعدها، والأدب الأندلسي، د. أحمد هيكل: 32.

(17) ينظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: 1356هـ)، دار الكتاب العربي، د. ط.:169/1، و الأدب الأندلسي، د. أحمد هيكل: 36.

(18) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دكتور إحسان عباس (المتوفى: 1424هـ)، الناشر: دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة الخامسة: 1978م: 252.

(19) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دكتور إحسان عباس (المتوفى: 1424هـ): 252، ونشأة الموشحات، سليمان العطار، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد: مدن الأندلس " قرطبة "، المجلد التاسع والعشرون، مدريد 1997: 159.

(20) ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (المتوفى: 1406هـ)، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة:. جـ 1، 2، 5/ الرابعة، 1417 هـ - 1997 م: 429/2.

(21) السابق نفسه.

(22) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر- بيروت - لبنان ص. ب 10، الطبعة: الأولى، 1900: 26/7.

(23) ينظر: نفح الطيب: 26/7.

(24) ينظر: الذيل والتكملة السفر السادس: 10.

(25) نفح الطيب: 26/7.

(26) نفح الطيب: 26/7.

(27) ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: 764هـ) المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر:1420هـ- 2000م: 62/2.

(28) جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، 1987م: 452/1.

(29) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م:110/11.

(30) التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: 1031هـ)، عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ-1990م: 334. وينظر: دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق 12هـ)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م:38/1.

(31) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ: 11/1.

(32) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: 1362هـ) أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت: 24/2.

(33) ينظر: تطور الأدب الحديث في مصر، أحمد عبد المقصود هيكل، الناشر: دار المعارف، الطبعة: السادسة 1994م: 150، والشعر المصري بعد شوقي للدكتور محمد مندور، الحلقة الثانية:4- 5، والحلقة الثالثة:4، وفي الأدب الحديث، عمر الدسوقي، الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة: الجزء الأول 1420 هـ- 2000م: 243/2.

(34) ديوانه، جمع وتحقيق: د. يوسف علي طويل: 107-109.

(35) ديوانه: 228.

(36) ديوانه: 173-174.

(37) ديوانه: 180.

(38) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، الطبعة الثالثة 1992م: 14 .

(39) النقد الأدبي الحديث، قضاياه ومناهجه، صالح هويدي د. ن، 2007م: 81

(40) ديوانه: 236.

(41) ديوانه: 239.

(42) ديوانه: 256.

(43) ينظر: قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار – محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية: 423.

(44) ينظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف (المتوفى: 1426هـ)، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثانية عشرة: 34.

(45) ينظر: تاريخ الأدب العربي، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف – مصر، الطبعة: الأولى، 1960 - 1995 م: 6/2.

(46) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: 1356هـ)، دار الكتاب العربي بدون طبعة: 169/3.

(47) ديوانه: 125.

(48) ديوانه: 150-151.

(49) ديوانه: 179.

(50) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008م: 1572/2.

(51) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو 770هـ)، المكتبة العلمية – بيروت:396/2.

(52) ينظر : تاريخ التشريع الإسلامي، مناع بن خليل القطان (المتوفى: 1420هـ)، مكتبة وهبة الطبعة: الخامسة 1422هـ-2001م، (ص: 12) .

(53) ديوانه: 153.

(54) ديوانه: 157-158.

(55) ديوانه: 169.

(56) ينظر: نقد الشعر، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (المتوفى: 337هـ)، مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، 1302م: ص: 33.

(57) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: 463 هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، 1401 هـ - 1981 م: 147/2.

(58) ديوانه: 207.

(59) ديوانه: 280-281.

(60) ديوانه: 282-283.

(61) ينظر : قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار – محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية: 516.

(62) الشعر الشعراء: 76/1.

(63) ديوانه: 109-110.

(64) ديوانه: 156-166.

(65) ديوانه: 159.

(66) ديوانه: 169-170.

(67) ديوانه: 190.

(68) ديوانه: 194.

(69) ديوانه: 195.

(70) ديوانه: 209-210.

(71) ديوانه: 215.

(72) ديوانه: 220.

(73) ديوانه: 221.

(74) ديوانه: 222.

(75) ديوانه: 264.